نجيب محفوظ والفلسفة

بقلم معن زيادة

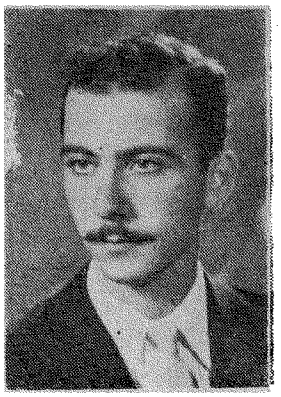

تقديم :

« لا بد لكل فيلسوف من أن يعود الى الوجود أو بالاحرى ان يعود الى « الذات » وما تكشف عنه الميتافيزيقا سواء عند افلاطون ام عند ديكارت ام عند « كانت » انما هو دائما الانسان ، و « الانسان » انما هو الكلمة النهائية لكل فلسفة » (١) .

لقد فهم البعض الفلسفة على أنها ذلك التحليق في البعيد عن كل ما يتعلق بالحياة اليومية من تفصيلات . . ومن ثم فقد أصبحت الفلسفات عبارة عن دوائر مقفلة أو اهرامات متناسقة ، هي باستمرار ـ رغم روعتها وابداع أصحابها ـ بعيدة عن المعنى الحديث للفلسفة . . .

ان الفلسفات المعاصرة مفتوحة على الانسان والعالم ، ومواقف الانسان وعلاقاته وتجاربه هي كما يقول «برديف»: معرفة للوجود في الانسان ومن خلال الانسان . . . وهذا مما يزيد في القرابة بين الفلسفة والادب ـ ولا سيما في الرواية ـ اذ ان تلك العودة الى الانسان على يد الفلاسفة الجدد ولاسيما الوجوديين، جعلت الانسان كانسان هو محور الفلسفة في القرن العشرين ، الانسان المتألم والحالم والمنتصر والسارق والمبتذل والحقير والمعقد والهاوي ، الانسان بكل ما فيه من رذائل وحسنات .

هنا مركز الفلسفة . . وهنا مجال الرواية . .

وكلما ازداد الروائي ابداعا في مجاله الخاص، اقترب من الفيلسوف في صورته الجديدة . . وعلى هذا فان فرانز كافكا وارنست همنجواي ونجيب محفوظ ومحمد ديب وغيرهم ، هم فلاسفة بمعنى ما من المعاني ، حتى ومع أنه لم يقدر لفلسفاتهم أن تتجرد عن المواقف والعلاقات الانسانية الخاصة بشخوص الرواية . . ولقد بقيت هذه الفلسفات في صورة احداث ومواقف تقدم لنا الماهية في الوجود ولا تفصل بينهما ، والواقع ان لكل تجربة من تجاربنا الانسانية سيكولوجيتها الخاصة ، يقدمها لنا الروائي في اطار حي فردي ، ويعرضها امامنا الفيلسوف في صورة مجردات ومركبات نظرية . .

والانسان كائن منفعل يخضع للقلق والتوتر والتأزم ويعيش في وحدة دائمة وغربة مؤلمة وهو في حيرة أمام عظمة الكون وجمال القيم والرغبة في الاستمرار والخوف من الموت . . الخ . . وهذا ما يدفع بالانسان لان يفكر ويتفلسف ويعبر عن نفسه بشتى الطرق والوسائل ، حتى أن « شوبنهور » ذهب الى القول بأن ما يدفع الانسان للكتابة والتفلسف انما هو ذلك التناقض المؤلم القائم في قلب العالم وصميم القيم ، وبين الفكر والوجود ، وذلك الالم والشر اللذين يسيطران على الحياة .

لقد وقف الانسان حائرا أمام تذبذب الحياة بين السلبية والايجابية ، الموت والحياة ، عظمة الكون وضعف الانسان ، اللانهائي والنهائي ، اللامحدود والمحدود ، المكان والزمان . . وحاول أن يحل اشكالات الحياة ، فآمن تارة بالالغاز والخرافات وتصارع مع القدر فخرج مهزوما حزينا ، ثم طور نفسه على ضوء تجاربه فاعتنق الافكار الدينية والمذاهب الفلسفية ، وعاد الى معركته من جديد ، وعاش تذبذبا حادا بين الفشل والانتصار ، وباستمرار كان الكائن البشري يبحث عن اسلحة جديدة، كان منها الافكار الفلسفية المتعددة والكتابات الادبية المتنوعة . .

امام هذا المنظار نرى ان الادب ، من رواية وقصيدة ومقالة ، والفلسفة من مذاهب كثيرة متنوعة ، ليسا سوى سلاحين بيد الانسان في معركة وجوده . .

من هذا التقديم الموجز نستطيع ان نخلص الى حقيقتين:

الاولى : أن مجال الرواية وساحة الادب يلتقيان عند القاسم المشترك بينهما وهو الانسان . .

الثانية : ان القرابة بين الفلسفة والادب تتجسد ايضا في كونهما سلاحين من اسلحة الانسان في معاركه ضد التناقض والتمزق وفي صراعه مع المجهول . .

واذا كان هذا مما يصدق على كل روائي فانه اكثر صدقا بالنسبة لنجيب محفوظ باعتباره اديبا مبدعا (اولا) يهتم بعرض الكثير من النماذج البشرية المتباينة في تفاهاتها وبطولاتها (ثانيا) يساعده على ذلك « الدراسات الفلسفية التي بدأ بها شبابه والتي اتاحت له صدق الحس في التحليل النفسي ، فادرك الصلات العميقة بين مواقف قد يراها غيره اشتاتا متفرقة لا يجمعها رباط » (١)

كمال ـ ماتيو :

لنعقد مقارنة سريعة بين ثلاثية نجيب محفوظ وثلاثية سارتر (دروب الحرية) حيث نرى التفلسف عند الاديب العربي بالقياس الى الرواية الفلسفية عند الفيلسوف الفرنسي:

١ ـ اول ما نعرض له في هذا المجال هو ان العملين الادبيين يتميزان بعرض عدد كبير من النماذج البشرية تقدم لنا الانسان في حياته اليومية وفي مباذله الاجتماعية وتكشف عن علاقاته مع الانا والاخر ـ سواء كان هذا الاخر هو الانسان ام الطبيعة ـ وجميع هذه الانماط من الناس محكومة بعدد من القيود المفروضة على الانسان من فوق، وجميع الابطال يحاولون باستمرار ان يمارسوا حريتهم، الا انهم مضطرون في النهاية الى اتخاذ موقف اختيار

(١) زكريا ابراهيم : مشكلة الفلسفة ـ ص (٥٣) .

(١) الاب ج. جوميبه : ثلاثية نجيب محفوظ ـ ص (٢٥) .

القبول والتسليم دون موقف الاختيار الصرف ، بمعنى ان حريتهم هي دائما اقرب الى حرية الموافقة والقبول منها الى حرية الاختيار . . وهذا لا يتعارض مع ما يذهب اليه سارتر من ان الانسان محكوم عليه بالحرية .

ونستطيع ان نعقد مقارنة بين ابطال نجيب محفوظ وابطال سارتر نبين فيها اوجه القرابة بينهم عند الكاتبين ، هذا « كمال » الذي يحمل الكثير من صفات نجيب محفوظ نفسه والذي قيل ان صاحب الثلاثية قصد به نفسه ، يتقرب من « ماتيو » الذي يحمل الكثير من صفات سارتر . . لقد تقبل كمال العزوبية في « السكريه » كما تقبل ماتيو الحرب في « وقف التنفيذ » دون ان يكون لاحدهما الارادة الحرة في ان يختار ما قبل به وسلم بامره . . . ان « رياض قلدس » يخاطب صديقه كمال قائلا : « حررت عقلك من كل قيد ، اما جسمك فكله قيود » تماما كماتيو الباحث عن حريته التي تنتهي عند حاجات البدن والحاح الاهواء والرغبات . . كلاهما ينشد الحرية ويحرص على امتلاكها ويضن بها ، وكلاهما ينصرف عن الزواج لانه ضد الحرية . .

نجيب محفوظ

في السكريه تحاول اسرة كمال ان تقنعه بالزواج :(١)

« قالت خديجه تحاصره :

ـ انو الزواج مرة وستعرف كيف تستعد له .

وقال ياسين ضاحكا :

ـ انك تنفق مرتبك لاخر مليم حتى لا تتزوج . .

كأنهما شيء واحد ، ولكن لم يتزوج رغم استجابة الظروف ورغبة الوالدين ؟ . . أجل مضت فترة في ظل الحب فكان الزواج ضربا من العبث . وتبعتها فترة حل محل الحب فيها بديل هو الفكر فاستغرق الحياة بنهم ، وكانت فرحة الافراح ان يعثر على كتاب جميل أو يظفر بنشر مقالة . وقال لنفسه ان المفكر لا يتزوج وما ينبغي له . كان ينظر الى فوق ويظن ان الزواج سيحمله على النظر الى تحت . ويتابع كمال حديثه عن نفسه باسلوب نجيب الفلسفي فيقول :

« وكان ـ وما زال ـ يلذ له موقف المشاهد المتأمل بقدر ما ينفر من الاندماج في ميكانيكية الحياة . وانه ليضن بحريته كما يضن البخيل بماله . ثم أنه لم يبق عنده من المرأة الا شهوة وتقضى ، والى هذا كله فالشباب لم يضع هباء ما دام لا ينقضي اسبوع دون مسرات فكرية ولذات جسدية . ثم انه حائر يداخله الشك في كل شيء والزواج نوع من الايمان . قال :

ـ أريحوا أنفسكم ، سأتزوج عندما أرغب في الزواج .

فابتسمت زنوبه ابتسامة ارجعتها الى الوراء عشرة اعوام وتساءلت :

ـ ولم لا ترغب في الزواج ؟ !

فقال كمال فيما يشبه الضجر :

ـ الزواج حبة وأنتم تجعلون منها قبة . .

ولكنه كان يؤمن في أعماقه بأن الزواج قبة لا حبة . وكان يساوره شعور غريب بأنه يوم يذعن للزواج فسيقضى عليه قضاء مبرما » .

هكذا يتهرب كمال من الزواج ويحاول ان يجد لنفسه شتى الاعذار يدافع بها امام الاخرين عن موقفه من الزواج ويحاول ان يظهره في صورة الصغار من الامور ، ولكنه بينه وبين نفسه يدرك ادراكا جازما بان في الزواج ضياعا لحريته وضياعا له ولحياته . .

ويحاول « جاك » ان يلعب في « سن الرشد » مع اخيه ماتيو نفس الدور الذي لعبته اسرة عبد الجواد مع كمال ، فعندما طلب ماتيو الى اخيه اقراضه مبلغ خمسة الاف فرنك يجهض بها صديقته « مارسيل » التي حملت منه بعد علاقة طويلة ، متجنبا بذلك الزواج . . كان جواب «جاك» الرفض الا اذا وافق ماتيو على الزواج . . ولكن . . لقد كان ماتيو يرفض الزواج لان فيه اهدارا لحريته ، ولقد بحث عن المخرج الملائم للتخلص من الطفل ، ووجد ذلك الحل في الاجهاض ، والان من اين له ان يأتي بمبلغ خمسة الاف فرنك ؟ لقد طرق اكثر الابواب دون جدوى ، وليس امامه الا اخوه ، ولكن لجاك رغبة صادقة وهي ان يتزوج ماتيو زواجا رسميا ، ذلك انه في الواقع متزوج بالفعل ولكن دون ان يصارح نفسه بذلك . . وعندما يقول جاك لاخيه « انك متزوج يا ماتيو » يجيب بطل سارتر بدهشة :(١)

« ـ يا للنبأ الجديد !

ـ أجل . انك متزوج ولكنك تزعم العكس لان لديك نظريات . لقد أخذت عاداتك عند هذه المرأة الشابة : فانت تلتقي بها أربع مرات في الاسبوع وتقضي الليل معها . وهذا مستمر منذ سبعة أعوام ، فليس فيه بعد اي أثر من مغامرة ! انك تحترمها ، وتشعر بواجبات نحوها ، ولا تريد أن تتركها . وأنا على يقين بانك لا تلتمس اللذة وحدها ، بل أنا أتصور ان اللذة ، مهما كانت قوية ، فلا بد أنها مع الزمن قد ضعفت . والواقع أنك لا بد أن تجلس اليها في المساء لتسرد عليها مطولا حوادث اليوم وتطلب نصيحتها بصدد بعض الحالات الصعبة . .

قال ماتيو وهو يهز كتفيه : « طبعا » . وكان غاضبا على نفسه ، فقال جاك : ـ حسنا ! هل تريد ان تقول لي بم يختلف ذلك عن الزواج الا بالسكنى الدائمة ؟ فقال ماتيو ساخرا : ـ السكنى الدائمة ؟ » .

وتستمر المناقشة بين جاك وماتيو . . ويحاول جاك ان يضغط على اخيه فيقول :

« ـ اسمع ، قلت لك أني سأقدم لك اقتراحا ، فاذا رفضت فلن يصعب عليك ان تجد اربعة الاف فرنك . ولن اندم . انني اضع عشرة الاف فرنك تحت تصرفك اذا تزوجت صديقتك .

وكان قد تنبأ بذلك . وكان هذا على أي حال ييسر له مخرجا صالحا ينقذ المظهر ، فقال وهو ينهض :

ـ أشكرك يا جاك ، انك لطيف جدا ، ولكني لا أوافق على اقتراحك الخ . . » .

صحيح ان مفهوم الحرية عند سارتر أعمق منه ويختلف عنه عند نجيب محفوظ . . . ولكننا باستمرار نستطيع ان نمسك بخيوط القرابة بين ابطال « السكريه » وابطال «سن

(١) نجيب محفوظ : السكرية ـ ص (٢٨) .

(١) جان بول سارتر : دروب الحرية ـ الجزء الاول ص (١٥).

الرشد» وذلك في حدود ما ذكرناه من ان العملين الادبيين يتميزان بعرض عدد كبير من النماذج البشرية المتشابهة .. فبالاضافة الى كمال وماتيو نجد ان رضوان يا سين عبد الجواد يذكرنا « بدانيال » و « عطيه » تذكرنا بمارسيل وهكذا .. الخ ...

٢ ـ النقطة الثانية هي ان الفلسفة لابد لها من ان تعود في نهاية امرها الى مكانها الصحيح والى حقل تجاربها الاصلي ـ الانسان ـ والفيلسوف لابد له من ان يعرض لنا صورا لسيكولوجيه الانسان وعلاقاته واساليبه وطرز تفكيره ... وكذلك الروائي لا بدله من ان يضع امامنا هذا الانسان عن طريق السرد والمونولوج والحدث، وهو بحكم عمله لا يستطيع ان يقدم لنا مواضيع وقضايا فلسفية صرفه ، وكل ما يستطيعه ، ان يقدم شخصيات لها نظراتها الخاصة الى العالم والوجود ..

والروائي الفيلسوف هو الوحيد الذي يملك ان يضع بين ايدينا شخوصا تتفلسف بطريقة جديدة ! انها تتفلسف بتصرفاتها ومناقشاتها وبتحليل مواقفها وحركاتها فتقدم لنا القضايا مبثوثة في صميم حياتنا اليومية ، ومن هنا فان سارتر يترك لابطاله فرصة تحليل مواقفهم وتصرفاتهم واعطاء رأي صريح فيما يقدمون عليه .. انه يقدم لنا الانسان من الداخل فيما بينه وبين نفسه او كما يقول الدكتور زكريا ابراهيم : « قدم لنا ـ سارتر ـ روايات فلسفية تضطلع فيها الشخصيات الروائية نفسها بمهمة تفسير المعنى التصويري الذي تحمله ، فالشخصيات الروائية عند سارتر تقول هي نفسها كل ما يراد لها ان تقوله ، وكل ما يمكن ان يقوله عنها الاخرون ! ومعنى هذا انها لم تعد بمثابة موضوعات دراسة ينثرها الروائي هنا وهنالك ، وانما هي قد اصبحت بمثابة شخصيات واعية تفهم ذاتها وتنقد سلوكها وتعلق على تصرفاتها .. الخ »

وفي هذا الطريق نلتقي بنجيب محفوظ ، ان كمال مثلا يتحدث باستمرار بينه وبين نفسه وكانه يقوم بتقديم نفسه الينا ، لنستمع اليه يتحدث عن نفسه قائلا :

« لم يتح له في طفولته أن ينعم بهذه الجنة فكبر طاويا نفسه على غريزة لم تشبع وفات أوان اشباعها . وهؤلاء الذين يتحدثون عن سعادة الطفولة من أدراهم بها ؟ ومنذا يستطيع أن يجزم بأنه كان طفلا سعيدا؟ لذلك فما أسخف هذه الرغبة الطارئة اليائسة التي تحلم بأن ترده طفلا مثل هذا الطفل الخشبي الذي يلعب في هذه الحديقة الوهمية الجميلة! انها رغبة سخيفة ومحزنة في آن واحد . ولعل الاطفال في الاصل كائنات لا تحتمل ، ولعلها المهنة وحدها التي علمته كيف يمكن التفاهم معهم وتوجيههم . »

هذا نموذج ... وهناك نماذج اخرى كثيرة في غير الثلاثية ايضا ، لنستمع مثلا الى هذا المنولوج الداخلي عند « سعيد مهران » في رواية نجيب « اللص والكلاب » :

« أنت لا تنخدع بالمظاهر فالكلام الطيب مكر والابتسامة شفقةتتقلص والوجود حركة دفاع من أنامل السيد ولولا الحياء ما أذن لك بتجاوز العتبة . تخلقني ثم ترتد ، تغير بكل بساطة فكرك بعد أن تحشد في شخصي ، كي أجد نفسي ضائعا بلا اصل وبلا قيمة وبلا امل ، حياته لئيمة لو اندك المقطم عليها ركاما شفيت نفسي ... » .

ان بطل اللص والكلاب يقدم لنا نفسه وحياته عن طريق المونولوج الداخلي ، ويشرح لنا كيف تطور به الامر الى احتراف الاجرام وهو يدرك خط تطوره ادراكا واعيا ويشرح لنا كيف انه محكوم عليه بالسير بخطى حثيثة نحو حياة مليئة بالفوضى والاجرام ، والنهاية الطبيعية لهذه الحياة هي العبث بكل معناه .. والموت ..

ان في كتابات نجيب محفوظ امثلة كثيرة لما اشرنا اليه وهي امثلة واضحة لا تحتاج الى بحث وجهد كبيرين .

٣ ـ ثم ان لنجيب محفوظ نظرة تكاملية تقدم لنا الانسان ـ الفرد ككل لا يتجزأ وتقدم لنا حياتنا كوحدة متماسكة او كحقيقة ترتبط فيها السياسة بالادب بالفلسفة فجوانب الحياة المختلفة ليست الا اوجها مختلفة لحقيقة واحدة هي الحياة ، التي هي حصيلة هذا الفعل ورد الفعل المتبادل في جنباتها وبين جوانبها .. والانسان هو العقل والجسد والنفس معا .. ويشير الابج. جوفييه الى هذه النظرة التكاملية عند نجيب محفوظ فيقول : « في اكثر من موضع كان يلح في ابراز التوازي بين مستوى التطور الخلقي العائلي ومستوى التطور السياسي في مصر. فكما كان الابناء يتحللون شيئا فشيئا من سيطرة الاباء كانت مصر كذلك تتحلل من السيطرة البريطانية » .

وسارتر والوجوديون ينظرون الى الانسان كانسان يفكر وينفعل ويحس . انه هذا الكائن القائم امامنا من لحم ودم والملقى في هذا العالم يواجه حريته ومصيره بكليته ، وليس العالم الا هذا الانسان في علاقاته المختلفة مع ذاته ومع الاخرين ومع الزمان والموت ، انه الانسان امام الانا والاخر .. انه هذه الوحدة المتماسكة من الصراع والجدل اليائس ..

عند هذه النظرة التكاملية يلتقي نجيب محفوظ بسارتر ، حيث يلتقيان معا بعد ذلك مع فلاسفة التكامل .

٤ ـ ولا بدلنا ـ الان ـ من الاشارة الى ذلك الاسلوب الفذالذي يعتمده نجيب محفوظ في كتاباته ... ولقد تطور هذا الاسلوب ابتداء من كتابات نجيب الاولى حتى اكتساب نكهة وطعما خاصين في الثلاثية ، وازداد

الاشتراكية والديموقراطية

صدر حديثا

دراسات معمقة عن مفهوم الاشتراكية وصلتها بالديموقراطية ، وعن الديموقراطية كوسيلة لتحقيق اهداف القومية العربية ، وعن التربية الديموقراطية.

تاليف

الدكتور عبد الله عبد الدائم

الثمن ٢٠٠ قرش لبناني **منشورات دار الاداب**

نضوج هذا الاسلوب في «اولاد حارتنا» و «اللص والكلاب» .. وهو اسلوب فيه بساطة الفلاسفة وعمق الفلسفة ، وهو باستمرار لا يخلو من التقارير الخاصة بلغة الفلسفة ..

لنقرأ في السكريه : « ففي بيت عمته جليلة كان يهب عطيه جسده ثم سرعان ما يسترده وكأن لم يكن .. » .. وليس هذا الا نموذجا مصغرا لما يمكن ان نعرض له في هذا المجال من الحديث عن نجيب محفوظ والاسلوب الفلسفي الخاص به ..

الزمان والموت :

تسيطر على ثلاثية نجيب « فكره واحدة هي فكرة التطور التاريخي شبه الحتمي الذي يقتلع كثيرا من التقاليد التي كانت تبدو راسية ويقوض صروحا من العرف كان يظن لها الرسوخ . ولذا قال الاستاذ نجيب محفوظ في حديث له بمجلة « اخر ساعة » ان بطل بين القصرين هو الزمن . فكل شيء في بين القصرين وقصر الشوق والسكريه يتغير بحكم الزمن » (١) والزمن هو الذي يضع كل شيء امام مصير واحد هو التبدل والصيرورة والانتهاء ..

واذا كان الزمان هو الذي يسير بالطفل نحو النضوج والرشد فانه ايضا يسير بالراشد نحو الشيخوخة والموت .. مفسحا بذلك المجال امام اطفال جدد ليأخذوا دورهم في هذا الوجود .. ومن خلال هذا يتقدم العالم الى الامام في طريق التطور ، والثلاثية تقف عند امينه وهي في لحظات حياتها الاخيرة ويمر ياسين وكمال بدكان الشرقاوي فيقول ياسين :

« ـ كلفتني كريمة بأن استبضع لها بعض اللوازم للمولود المنتظر عن أذنك .. ودخلا الدكان الصغيرة ، وراح ياسين ينتقي ما يريد من لوازم المولود المنتظر قماطا وطاقيه ومنامة ، وعند ذاك تذكر كمال انرباط عنقه الاسود الذي استعمله عاما حدادا على والده قد أستهلك ، وانه يلزمه اخر جديد ليواجه به اليوم الحزين فقال للرجل حين فرغ من ياسين :

ـ رباط عنق أسود من فضلك ..

وتناول كل لفافته ، وغادرا المكان ..

وكان المغيب يقطر سمرة هادئة فمضيا جنبا الى جنب نحو البيت»

هكذا تنتهي الثلاثية، برأي واضح، وهو اننا لا نستطيع ان نملك الزمان، تلك القوة التي تصنعنا ثم تسير بنا يوما بعد يوم الى مصيرنا المحتوم : الموت ، ان الزمان ليشعرنا بعيوبنا ونواقصنا وضعفنا، ونحن عبثا نحاول ان نتكهن بالمستقبل او نعود بانفسنا الى الوراء حيث ماضينا ، لقد كتب لنا ان نعيش حياتنا مبتورة من المقدمة والمؤخرة « وما اشبه الموجود البشري بذلك المتفرج الذي مهما حاول ان يشهد العرض من اوله ، فانه لا بد من ان يجيء الى المشهد ليجد ان العرض قد ابتدأ منذ مدة ، ومهما حاول ان يجبر نفسه على ان يشهد الرواية حتى النهاية فانه لا بد من ان يجد نفسه خارج الصالة قبل ان يكون قد شهد الخاتمة » (١) فانسان هذا العالم هو ذلك الموجود المحصور بين محالين متعذرين على الفهم ..

لقد قدم نجيب محفوظ في الثلاثية فترة زمنية طويلة اظهرت لنا قصر الحياة البشرية وفاعلية الزمان في حياة الموجود البشري .. واظهر لنا صراع الانسان مع الزمان ، وكان هذا الصراع الذي انتهى بانتصار الزمان وغلبه الإنسان واضحا في حياة السيد احمد عبد الجواد واصدقائه ومعارفه ، وخاصة الشيخ متولي عبد الصمد الذي يعتبر اكبررمز لفكرة الزمان كما يراها نجيب محفوظ.

وصراع الانسان مع الزمان يظهر لنا في صورة الخوف من الزمان ، والواقع ان الخوف من الزمان ليس الا خوفا من الموت ، الذي نعرف انه كامن في ذواتنا المتناهية الناقصة والموت هو تلك الهوة السحيقة الغارقة في المجهول والاسرار.

ومهما حاول البعض ان يخفف من حدة مشكلة الانسان مع الموت فان نظرتنا للموت لابد من ان تكون نظرة لواقعة مؤلمة ، واقعة غريبة عن حياتنا ولكنها في نفس الوقت مفروضة على حياتنا ، وهي باستمرار واقعة غير مقبولة لانها واقعة غير معقولة ولانها واقعة حاسمة قاطعة مغلفة بالاسرار والاحاجي وتظهر مافي حياة الموجود البشري من تناه وعرضية .. الموجود الذي لايقبل بالحدود ويسعى باستمرار لان يتخطاها ..

والخوف من الموت في الحقيقة ليس الا خوفا من فقدان الذات ، واذا كان الموت هو موت الغير فانه في هذه الحالة ايضا يطرح موضوع فقدان الذات ، اذ ان موت الاخر يثير بيننا وبين انفسنا نقاشا وجدالا وحوارا ينتهي بانتصار فكرة الموت ..

واذا كان هناك لونان من الوان الموت، موت الشيخوخة

(١) ج. جوميه : ثلاثية نجيب محفوظ ص. ١١٢ .

(١) الدكتور زكريا ابراهيم ـ مشكلة الانسان ص ١٠٤

صدر حديثا :

المهزومون

بقلم

هاني الراهب

موهبة روائية جديدة تبزغ

في سماء الادب العربي الحديث

الثمن ٣٠٠ ف.ل ـ ٣٧٥ ف.س

دار الآداب

والموت المبكر ، فان لهذين اللونين من الوان الموت اشكالاتهما المتشابهة ، فموت الشيخوخة يطرح مشكلة هذه الحياة الواسعة نسبيا التي انتهت والموت المبكر يطرح مشكلة هذه الحياة « الواسعة » التي انتهت ايضا ولكن قبل ان تتحقق ..

ولقد عرض لنا الاديب العربي الكبير نماذج مختلفة للموت فيها موت الشيخوخة « احمد عبد الجواد واهينه » وفيها الموت المبكر « اولاد عائشة » واظهر لنا اثر كل لون منهما على الاخرين ... واهتم نجيب باثر موت الانسان على الاخرين اهتماما كبيرا ، كما هو واضح في رواية «بداية ونهاية » حيث نجد ان موت الاب في البداية كان له دور بالغ في حياة « الاسرة كلها » ... وروايات نجيب لاتخلو من طرح موضوع الموت سواء في الثلاثية او « بداية ونهاية» او « زقاق المدق » او « اللص والكلاب » ، وهو قد عالج الموضوع من زواياه المختلفة .

منها على سبيل المثال ..

ان مشكلة الموت في المجتمع الحديث لم تعد تلك المشكلة الكبرى التي تشغلنا كثيرا وخاصة اذا كان الموت هو موت الاخرين ، فالفرد في ظل الحياة الاليه ليس الا ترسا صغيرا قابلا لان نستبدل به غيره ، وكأن شيئا لم يكن . ومن هنا فان الانسان في المجتمع الحديث اخذ ينظر للموت نظرة جديدة بعيدة عن الالغاز والاسرار والاحاجي انها تشبه نظرتنا لاي ظاهرة من ظواهر الحياة ... كما في قصة « جوار الله » حيث رسم لنا نجيب محفوظ موت « الست نظيرة » وكيف ان هذا الموت لم يثر في نفس الاخرين اي لون من الوان الحزن او القلق ، فاقرباء الست نظيرة راحوا وهي تنازع الموت يتصارعون حول التركه وهي عبارة عن بيت قديم في احد احياء القاهرة ، وجيران الست نظيرة فرحون في انهم لم يدفعوا بعد اجرة الشهر الاخير.. وينتهي الامر بحديث السمسار الحاج مصطفى مع عبد العظيم قريب الست نظيرة عن بيع البيت بعد دفن الست نظيرة مباشرة ..

خاتمة :

لقد عرضنا بايجاز لعلاقة نجيب محفوظ بالفلسفة ، ولكن الرواية الفلسفية الاولى عند نجيب هي« اولاد حارتنا» التي نشرت على حلقات في « الاهرام » ولم تصدر بعد في كتاب رغم مضي سنتين على نشرها متسلسلة ، والسبب في ذلك تلك الضجه التي أثارها الازهر ضد الرواية والتي ادت الى تأخير اصدارها .. فلقد كان للرواية ضجة كبيرة يعود سرها « الى رموز هذا العمل الروائي ، فقد قام بعض المسؤولين في الازهر وبعض النقاد في الصحف اليومية والندوات بربط شخصيات الرواية بالرجال العظام في التاريخ كالانبياء موسى وعيسى ومحمد ، بل واستطاع البعض ان يربطوا بين الشخصية الرئيسية وبين الله نفسه، بقدر ضئيل من الذكاء ، لان الرموز التي استعملها نجيب محفوظ لم تكن مضببة بما يكفي لاغلاق العمل الفني»(١)

والواقع ان الرواية تطرح اكثر من مشكلة فلسفية ، من هذه المشاكل مشكلتان أساسيتان : الاشتراكية التصوفية والصراع بين الخير والشر ..

١ ــ توضح في اولاد حارتنا ايمان نجيب محفوظ بما أسماه بالاشتراكية التصوفية وادكر اني سألت نجيب عن وجهة نظره هذه فقال : « انت تعرف طبعا ان التصوف هو التوجه الى حقيقة الكون الكبرى ، وهي الله ولكي نبلغ هذه الغاية تلزمنا اعمال وانواع من السلوك كثيرة ، بعضها يخص الفرد كالخلق ، والمعرفه والحب وبعضها يخص المجتمع كالاشتراكية وبمعنى اخر انه كما يوجد انواع من السلوك وضروب من التعامل تبلغ بالفرد اعتاب الالوهيه فكذلك يوجد من النظم الاجتماعيه مايمهد السبيل الى هذه الغايه .. والاشتراكيه هي الطريق الاجتماعي الى الله . لانها تحقق العدالة الانسانية وتوفر ضروره العيش التي تهيىء للفرد التكامل،وتلغي البؤس والاستغلال والجشع وغيرها مما يلوث النفوس عند الناس فيصدها عن المكوث ... » (١)

هذا ماقاله نجيب في الاشتراكية التصوفية . وهو يقدمه لنا في « اولاد حارتنا » في صورة عمل فني خالد يشرح فيه وجهة نظره في أسس وتفصيليات هذه الاشتراكية وصراع الانسان من اجل الخير ضد الشر ومظاهره المختلفة التي قد تكون في صورة حاكم مستبد او في فئة من الناس تملك كل شيء على حساب الاخرين . فلقد نظر اصحاب السلطة لابناء الشعب نظرتهم لاعداء لاحق لهم في الحياة ، وجابهوهم بكل وسيلة مثل « ليس فيكم من يعرف اباه . ولكنكم تقولون بكل وقاحة جدنا ، يا لصوص ياجرابيع ياسفلة » ــ اولاد حارتنا ــ ..

ان هذا الاتجاه عند الاديب الكبير ، بدأ باولاد حارتنا ثم سار في طريق العمق والنضوج بعد ذلك في عدد من القصص القصيرة ، منها قصة « حنظل والعسكري » التي نشرت مؤخرا في الاهرام ، والقصة عبارة عن حلم يتخيل فيه احد مدمني المخدرات « حنظل » ان شرطيا القى القبض عليه ، ولكنه بدلا من ان يقسو عليه يعامله بمنتهى الطيبة والود ، ثم ياخذه المأمور الذي يعامله احسن معاملة ممكنة ويرسله الى المصح ، ويخرج حنظل من المصح ويعود للمأمور فيقول له المأمور اطلب مانشاء ، ويهيىء له المأمور مايشاء ، مهنة شريفة وزوجة طيبة « سنية » هي نفس الفتاة التي كان يحبها حنظل .. ولكن .. وبينما الافراح في اوجها يشعر حنظل بشيء غريب ثم يصحو على صوت العسكري وضرباته القاسية ... الخ .. وهكذا نجد ان نجيب محفوظ مازال يسير في نفس الاتجاه الذي ابتدأ مع « اولاد حارتنا » وما زال في طريق التطور ..

٢ ــ وفي اولاد حارتنا يعرض الكاتب للصراع بين الخير والشر في الحياة البشرية ، ثم ينتهي بتقديم حل معين وهو الايمان بالعلم ، فالعلم هو الذي يقدر على حسم هذا الصراع وذلك بما يطرحه من حلول ..

وبعد ..

ان مايمكن ان يكتب في موضوع « نجيب محفوظ والفلسفة » اكثر بكثير مما كتبت في هذه الرقعة الضيقة، وهو يحتاج لجهد ووقت اكثر مما بذلت .

معن زياده

(١) محيي الدين محمد : العدد الثاني سنة ١٩٦٠ ص ٧٣

(١) حديث في « الحرية » البيروتية العدد ــ ١٥ ــ السنة الاولى.